الحارث المحاسبى
ورسالة التصوف

أصدر الأستاذان الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور كتاب « الرعاية لحقوق الله » للامام الصوفى الكبير « الحارث المحاسبى » ..

وقد مهدا له بمقدمة رائعة عن القوى الفكرية فى العالم الاسلامى ممثلة فى « أهل السنة » « والمعتزلة » وموقف التصوف من هذه القوى .

والرسالة التى قدمها أعلام التصوف للعالم الاسلامى فكانت الحل الثالث، وبهذا الحل أو بهذا المنهج كملت الدائرة التى تمثل أبناء الانسانية كافة .. واتسعت الفكرة الاسلامية للمتمسكين بالنصوص « أهل السنة » وللعقليين « المعتزلة » وللروحانيين « الصوفية » .

ونحن نقدم لقرائنا تلخيصا وافيا لهذه المقدمة الجليلة ..

نشأ الحارث المحاسبى ، وفى العالم الاسلامى قوتان هائلتان تصطرعان – أهل السنة : ويمثلهم الامام أحمد بن حنبل ، والمعتزلة : ولهم ممثلوهم فى البصرة والكوفة وبغداد ، وهذا الصراع بين المعتزلة وأهل السنة صراع طبيعى لا يخلو من مثله دين من الأديان .. انه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين ، انه النزاع الأبدى بين الذين يقولون : ان الدين نص تفسره أسباب النزول واللغة والرواية ، والذين يقولون : ان الدين نص يفسره العقل ويوضحه .. ويظن بعض الناس انه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث فى هذه الخصومة .. فالانسان اما نصى واما عقلى ، ولا يحتمل الأمر حلا ثالثا ..

ونشأ المحاسبى ليعلن هذا الحل الثالث ، لقد هاجم المعتزلة هجوما عنيفا فقد رأى فى نزعتهم العقلية طغيانا لا يتناسب ومقام العبودية ، ورأى أن نزعتهم تحكم العقل فى القرآن ، وتجعله يسيطر على النص ، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد فى الحقيقة هو العقل لا الكتب المقدسة .

واذا كان المعتزلة قد خدموا الدين بدفاعهم المجيد ، ورد هجمات أعدائه وتأييده منطقيا ، وعقليا ، فانه مما لا شك فيه أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل الى عالم « ما وراء الطبيعة » فيفسر لنا غامضة ، ويوضح لنا من أمره منبها ..

لا بد اذن أن يخضع العقل للنص ، ومذهب المعتزلة اذن لا يسير فى « عالم ما وراء الطبيعة » على النهج الصواب ..

والعبودية الحقة فيما يرى « المحاسبى » الصوفى ، هى المنهج الصحيح للوصول الى المعرفة الحقة .. ومن ثم يدخل « المحاسبى » المعركة وسلاحه فيها عبودية حقة ، واخلاص لا حد له ، وتقوى تغمر كل الجوادح ، ومن قبل ذلك ومن بعده دراسة مستفيضة للدين ، ووسائله ، وغاياته ، جزئياته وكلياته ..

واحتدم النزاع وثار الفقهاء على «المحاسبى» ، فقد كان ينهج فى درسه نهجا آخر غير الطريق التقليدى ..

كان يتحدث فى الاخلاص ، وفى الورع ، وفى الزهد ، وفى الخشوع الخالص لله ..

وكان يتحدث فى محبة الله ، والانس به ، والقرب منه ، وكان يتحدث فى هيبته وجلاله وعظمته ، وكان حديثه عذبا طلقا ســـاميا ، تخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ..

وملأت سمعة « المحاسبى » أرجاء بغداد ثم عبرتها الى جميع أرجاء الأمة الاسلامية ، وكلما أخذت شهرته فى الازدياد كلما كثر خصومه وشانئوه..

ولكنه كان يسير فى طريقه ثابت الخطى لا يعنيه سوى أن يكون الله راضيا عنه ، وتكشفت له الحجب ، ووصل الى المعرفة الحقة فاعلن طريقها الأعظم ، وطريقها ليس حسا يخطىء ، وليس عقلا يضل ، وانما هو : بصيرة وضاءة ، وروح صافية ..

واستمرت الخصومة بين النصيين ويمثلهم : الامام أحمد ، والروحيين ويمثلهم : الامام المحاسبى .. والعقليين ويمثلهم : المعتزلة .

تسلسلت فكرة « المحاسبى » ، وتمثلت خير تمثيل فى الامام الغزالى ، ثم فى بقية الصوفيين من بعده حتى عصرنا الحاضر ..

وتسلسلت فكرة الامام أحمد ، فتمثلت فى الامام ابن تيمية الذى وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد ، واستمرت قوية الى عهدنا الحاضر ..

وتسلسلت فكرة المعتزلة راكدة حينا ، وقوية حينا آخر حتى كان جمال الدين الأفغانى فدفعها دفعا قويا الى عالم الظهور ، وكان الشيخ محمد عبده من أهم العوامل فى نشرها ، ملطفة ، خفيفة تكاد تلبس ثوب السلفية ..

وحمل اللواء من بعده الشيخان : المراغى ، ومصطفى عبد الرازق ، وفكرة الامام محمد عبده تتمثل فيهما لا فى الشيخ رشيد رضا كما يظن كثير من الناس ..

وتلك القوى تمثل نزعات فطرية فى بنى الانسان ، فبعضهم واقعى يتجه الى النصر ، ولا يريد أو لا يمكنه أن يسير الى أبعد منه ، وبعضهم يحتفظ بشخصيته قوية لا تلين ، فهو عقلى أو اعتزالى ٠٠ وبعضهم مرهف الحس ، متفتح القلب ، ملائكى النزعة فهو صوفى ٠٠ أو روحى ٠

نزعات ثلاث تقوم على فتر مختلفة ، وهذه الفتر ستستمر فى بنى البشر ما دام على وجه الأرض أفراد من النوع الانسانى ، ومن هنا كان خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال أو النصيين على أمل أن يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات ٠

***

لا يزال المحاسبى اذن حيا بيننا بمنهجه وأفكاره ، والامام الغزالى يتحدث عنه ، ويذكر فى صراحة أنه تتلمذ على كتبه ، ويذكره مؤرخو الطبقات بالاعجاب والفخر ، ويتحدث عنه الصوفية فى اكبار واجلال ٠٠

نشأ بالبصرة ، وأقام فيها فترة من الزمن ، ثم ذهب الى بغداد واستقر بها وعاش حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ٠٠

يصفه صاحب الحلية فيقول : « كان لألوان الحق مشاهدا ، ومراقبا ، ولآثار الرسول عليه السلام مساعدا ومصاحبا ، تصانيفه مدونة مسطورة ، وأقواله مبوبة مشهورة ، وأحواله مصححة مذكورة ، كان فى علم الاصول راسخا وراجحا ، وعن الخوض فى الفضول جافيا وجامحا ، وللمخالفين الزائغين قامعا وناطحا ، وللمريدين والمنيبين قابلا وناصحا ٠٠ »

ولقد ترك الحارث المحاسبى لنا أثرا فريدا عن تطور حياته النفسية والروحية ، يرى كثير من المؤرخين أنه كان الملهم للامام الغزالى فى وضع كتابه « المنقذ من الضلال » ٠

وهذا الاثر يصور لنا فى روعة بالغة الاتجاهات الروحية للمحاسبى والمعراج الذى صعد عليه فى سلوكه ، كما يقدم لنا صورة كاملة عما كان يصطرع فى عصره من أفكار ومناهج ٠٠ قال المحاسبى :

« انتهى الينا أن هذه الامة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها : فرقة ناجية والله أعلم بسائرها ، فلم أزل برهة من عمرى أنظر اختلاف الامة والتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد ، وأطلب من العلم العمل ٠٠

وتدبرت أحوال الامة ، ونظرت فى مذاهبها وأقاويلها فعقلت من ذلك ما قدر لى ، ورأيت اختلافهم بحرا عميقا قد غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ، ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة فى تبعهم ، وأن

الهالك من خالفهم ، ثم رأيت الناس أصنافا ، فمنهم العالم بأمر الآخرة لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل فالبعد عنه غنيمة ، ومنهم حامل علم منسوب الى الدين ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا ، ومنهم متشبه بالنساك ، متجر بالخير ، لا غناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه ، ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل ، ومنهم منسوب الى العقل والدهاء مفقود الورع والتقى .

ومنهم متوادون على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتباذلون ورياستها يطلبون، ومنهم شياطين الأنس ، عن الآخرة يصدون وعلى الدنيا يتكالبون ، والى جمعها يهرعون ، وفى الاستكثار منها يرغبون .

ثم يقول بعد حديث طويل عن تلمسه للهدى واليقين بين الأمواج الهادرة ، والاختلافاف السائرة :

« فقيض لى الرءوف بعباده قوما وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع وايثار الآخرة على الدنيا ..

ووجدت ارشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، مجتمعين على نصح الأمة ، لايرجون أحدا فى معصيته ، ولا يقنطون أحدا من رحمته ، يرضون أبدا بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى الى العباد ، بذكرهم أياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلما بكتابه وسنته ..

فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى البدع والأهواء تاركين التعمق والاغلاء ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطامعهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من الميعاد ، مؤثرين على أنفسهم ، علماء بأمر الآخرة واهاويل القيامة ..

فأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة، والمتوسلون بالمرسلين،والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدهم ، وأصبحت راغبا فى مذهبهم ، مقتبسا من فوائدهم قابلا لآدابهم ، ففتح الله لى علما انفتح لى برهانه ، ورجوت النجاة لمن أقربه ، أو انتحله .. »

هؤلاء هم رجال التصوف ، وتلك سماتهم ، وهم الفرقة الناجية المهتدية عند « المحاسبى » .. هؤلاء هم الرجال الذين قدموا للأمة الاسلامية الحل الثالث .. أو المنهج الثالث بين مناهج أهل الفكر والمعرفة .. ويأتى « المحاسبى » فى طليعتهم ..

أما كتاب « الرعاية لحقوق الله » فانه يعتبر أعظم ما كتب فى الاخلاص وتطهير النفس والحياة الأخلاقية الكاملة ..

وقد بلغ فى تحليل نزعات النفس ، ونزعات الهوى ، وأمراض القلوب حدا لا يجارى ، ولا يبارى ، يقول الأستاذ المستشرق « ماسينون » عن هذا الكتاب : « ان المحاسبى سما فيه بالتحليل النفسى الى مرتبة لا نجد لها مثيلا فى الآداب العالمية الا نادرا ..»

وحينما قراه العلامة « الشيخ زاهد الكوثرى » قال معبرا عن حقيقة تاريخية : « لقد كان أثر الامام المحاسبى على الامام الغزالى كبيرا ، لقد تبطن الامام الغزالى كتاب الرعاية فى كتابه الأحياء ..

وحسب المحاسبى خلودا أن يكون أستاذا وموردا لحجة الاسلام الغزالى .

من آثار العلامة البيرونى

الفلسفة الهندية

مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الاسلامى

راجعه وقدم له

الدكتور عبد الحليم محمود و عثمان عبد المنعم يوسف

الامام البيرونى أكبر عقل مفكر فى تاريخ الاسلام ، وكتاباته عن الهند وروحانيتها وعلومها هى أوفى مراجع التاريخ الاسلامى عن القارة الهندية ، والتحفة العلمية التى يقدمها الينا اليوم الاستاذان الجليلان من تراث العلامة البيرونى تعتبر القمة العليا فى فلسفته وتراثه

كتاب يجب أن يقرأ .. صدر حديثا . ويطلب من المكتبات العامة ومن مجلة الاسلام والتصوف والثمن خمسة عشر قرشا